سورة الصافات

obeikandl.com

﴿ سورة الصافات ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾

إقسام منه سبحانه بالملائكة، قلت: وفيه نكتة بديعة للمنكرين للإقسام بحضرة النبى ﷺ، ويقولون فى قوله سبحانه: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أنه إقسام تكريمى وأنه ليس المراد منه الإقسام الحقيقى به ﷺ ، ولو سبروا أروحهم أكثر فى ملكوت السموات والأرض لعلموا أن الإقسام به ﷺ أكرم من إقسامه سبحانه بالملائكة وكذلك من إقسامه سبحانه بالضحى والليل وكذلك من إقسامه بالتين وبالزيتون وكذلك من إقسامه بالفجر، أليس حضرة النبى ﷺ أشرف وأكرم على ربه من التين والزيتون والملائكة والفجر والضحى والليل ؟

أقول: وقد ونص قوم من علماء المالكية القدماء على جواز الإقسام الشرعى به ﷺ واحتموا بهذه الآية، وكذلك جوز هذا بعض شيوخنا العارفين فى هذا العصر .

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

اعلم أيدنى الله وإياك بروح منه أنه ليس كل العاملين يعملون لمثل هذا من السادة المخلصين، فإن المقربين مستغنون عما يشغلهم عن الحق سبحانه من حور وولدان وجنان، ولذلك لما قيل لأحد العارفين: أرأيت ما يعطيه الحق سبحانه من الكرامات لأوليائه؟ فقال: إن الصبيان إذ بكوا أعطوا لعبة لكى تشغلهم .

ولذلك لما ذكر أمام رابعة الحور وما أعده الله لأهل الجنة من النعيم قالت: كفانا شغلا عن الله أف لدار ليس المحبوب فيها.

وقال أحد العارفين لما رأى الكعبة فى الحج يطوف بها الناس: ما هذا الصنم الذى يطاف به ؟

وقال مجنون بنى عامر:

وما حب الديار شغلن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

وإذا كانت هذه هى همة المجنون فما بالك بأهل الله وشدة فنائهم فى المحبوب وشدة شغلهم به، وهذا سلطان العاشقين وهو يجود بنفسه يقول معبرا عن هذه الحقيقة:

((أروم وقد طال المدى منك نظرةً))

فاعلم أن همة العارف فى عدم تفرقه عمن يحب، وتكون لذته العظمى فى مشاهدة المحبوب، واعلم أنه كم من عشاق قد قتلوا فى الحمى دون تحقق المراد، منهم الكليم الذى صعق دون أن ينال مراده لما قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ .

وقد عبرت وجوه بعض العارفين عن هذه الصفة، فأصبحوا يقتلون كل من يشاهدهم، وذلك لتمكن أنوار الربوبية منهم، وكان سيدى أحمد البدوى ﷺ متلثما ولا يبدى وجهه لأحد ويقول فى ذلك: كل نظرة بقتلة، وكان أبو يزيد ﷺ أحيانا إذا تعاظمت أنوار الربوبية وتجلت فى وجهه يضع لثاما، ويخاف على من يدخل عليه إلا باللثام، حتى أن مريدا لذى النون ﷺ أصر على رؤية وجهه بدون لثام فمات حالا، فجاء ذو النون من مصر وعقد سماعاً لتلاميذ البسطامى وفى أثناء السماع صرخ فمات مريد لأبى يزيد فقال ذو النون: هذه بتلك .

والحال يثبت أن أبا يزيد مقامه أرقى من ذى النون.

ومن هنا رقى العارفون مريدهم بالنظرة الربانية.

ومنهم: من كان وجهه تبدو فيه صفات الجمال والرحمة بالناس ـ بخلاف من كانت وجوههم تبدو فيها آثار الجلال الإلهى والقهر كالبدوى وأبى يزيد ـ فقد ورد عن كثير منهم حكايات أن من شاهد وجه أحدهم دخل الجنة إلى سبعة وإلى كذا وكذا عدد، وقد ورد عن شيخنا سيدى أحمد التجانى ﷺ أنه قال: قال لى سيد الوجود ﷺ: كل من نظر وجهك يوم الإثنين والجمعة دخل الجنة بغير حساب .

وقال سيدى أحمد بن يوسف الميناني: كل من رآني ومن رأى من رآني إلى سبعة دخل الجنة.

فهؤلاء أرباب الرحمة والجمال وهؤلاء أرباب القهر والجلال .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أى ردوا لأصل جبلتهم، فليس لهم طعام يغذيهم فى أمهم النار الكبرى سوى الخبائث، فإنهم لا يتغذون فى الآخرة إلا من اصل جبلتهم الخبيثة، فصورتهم الدنيوية لا تفارقهم فى الدار الآخرة كما ورد بذلك الحديث الشريف: ((**يحشر المرء على ما مات عليه**)).

فالصور الشهودية تترجم إلى ذاتها فى عالم الغيب الأخروى، وكما قال سبحانه: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾ .

فكل جبلة لا ترى فى مرآة الآخرة إلا ما ينعكس منها وما صدر عنها ولذلك قال أى الحق سبحانه عنهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾

أى قلب خال من العلل، فلم يمس ذلك القلب شبهات الأكوان ولم تطرأ عليه علل الحدثان، فتتبدل فيه، بل بقى سليماً على الفطرة الأولى لكونه من المخلصين الذين لم تلحقهم يد التبديل والتغيير.

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أى أنه لما طلب شيئاً يحبه وتاقت إليه نفسه وهو حب الولد أراد الحق سبحانه وتعالى قطع ذلك الحب من قلبه، لأن هذا هو دوما شأن الحق مع الأكابر فى قطع دابر كل ما يحبونه من أفئدتهم، والحق له رموز عاليات يربى بها الأكابر ويؤدبهم بها، فعبر الحق سبحانه عن السعى بشده النضج وذروة إعجاب الوالد بولده، فأراد الحق سبحانه عقد امتحان لإبراهيم كما يرى رد فعله.

فيما يحبه من فلذة كبده، وهذا الامتحان كان أنسب وقت له عند بلوغ ذلك الغلام أشده فى ريعان الشباب والقوة وهو المعبر عنه ببلوغ السعى .

﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

اعلم أن هذا النص الإلهى يدل على وجوب تنفيذ الأمر الإلهى، وإن كان مناماً وحمله على ظاهره، دون تأويل، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لابنه: ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؟ أى هل أحمله على ظاهره أم أأول الرؤيا ؟ فما كان من الابن إلا أن قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ أى احمل النص الإلهى على ظاهره دون تأويل، وهو أشد ما يكون من آداب الاختبارات الإلهية من الأكابر مع الله، ولذلك لما قال الحق سبحانه لبنى إسرائيل على لسان موسى: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ـ أى إن أردتم التوبة ـ فما كان من الكليم إلا أن يحمل النص الإلهى على ظاهره خوفاً من خروجه عن الأدب مع الله، فلم يراجع ربه ويقل له: كيف تكون التوبة بقتل النفس ؟.

ولذلك قيل لنوح عليه السلام لما لم يحمل النص الإلهى على ظاهره: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ .

فاعلم أرشدك الله على وجوب تنفيذ النص الإلهى كما يسمع على ظاهره من قبل حضرة الأمر سواء للملك أو النبى، ويجب أن يقال ههنا فى هذا الموضع: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وإلا لما قيل فى حق الجميع:﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾: أى لم يناقش الأمر الإلهى ونفذه بحذافيره فافهم .

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

أى سلما من هوى النفس والميل إليها ونفذا الأمر الإلهى بحذافيره ولم يبق بينهم وبين تنفيذ الأمر الإلهى حجاب، فكانا فى هذا الموقف أقرب إلى الله من غيره .

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ ﴾

أى من أجل يقين وصدق هؤلاء السادة الأكابر خلقنا لهم ما يـذبح من الروح على مدار القرون إلى يوم القيامة، فلا تزال الأرواح تفدى ذلك الفتى الصادق إسماعيل إلى يوم القيامة، وهذا من أكبر الشرف له والسؤدد وذلك من أجل صدقه وصدق أبيه عليهما السلام.

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ ﴾

أى وتركنا ما يفديه من الأرواح فى الآخرين من بعده، فنحن نكرم إبراهيم وابنه إسماعيل وننفذ الفداء الإلهى لهذا السيد الجليل، فكل من قدم أضحيته فكأنه افتدى السيد إسماعيل، وأول من افتداه ابنه سـيدنا محمد ﷺ ، فإنه قد ذبح كبشين واحداً عنه وواحداً عن أمته إلى يـوم القيامة، فإنه قال عند ذبحهما ((**اللهم هذا عنى وهذا عن أمتى**)).

فكأنه كان نائباً عمن لا يملك ثمن الأضحية من أمته بهـذا الكـبش وكذلك عمن يملك فافهم .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ ﴾

أى هرب من الأمر الإلهى ولم ينتظره حتى صدوره، فقد حكى عنه أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم بغير إذن ربه وركب سفينة فوقفت فقيل فيها عبد آبق فاستهموا فخرجت القرعة عليه فقـال: أنـا الأبق ورمى بنفسه فى الماء، وأصل الفعل أبق فى اللغة أى من هرب من سيده، ولما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه،

فإن صفة العبد الآبق من قدر الله أن يضيق عليه ويقتر عليه ويؤيده أنه قرئ مشدداً، ولذلك شدد عليه فى القرعة لما استهم فكان من المدحضين ثم شدد عليه لما التقمه الحوت وهو مليم .

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

وهذا معنى قوله ﷺ: ((**الدعاء يرد القضاء**)) .

قلت: وفيه فضل التسبيح والدعاء وعظيم شأوه، وكونه قطع مكث ذى النون فى بطن الحوت إلى يوم يبعثون يدل على خطر شأن الدعاء والتسبيح .

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

أى كذلك حال كل من يخرج عن دائرة الإذن الإلهى ولا ينتظره ولا يبقى تحت حكمه فى ساحة الانتظار، فيخرج مغاضباً ويظن أنه لن يُقْدَرَ عليه، فلا يصيبه سوى النبذ بالعراء فهو سقيم، فلا تخرجه عن دائرة فعله سوى أحكام الرحمة الإلهية فيه وكذلك هذا هو حال الصحابى الذى لا يسمع كلام النبى ﷺ ، كما فعل بهم فى غزوة أحد، من عدم سماعهم لأوامره ﷺ .

وكذلك هذا هو حال المريد الذى لا يسمع كلام شيخه فلا يصيبه سوى البغض والنبذ والحبس فى الظلمات النفس، ذلك لكون الحوت ههنا هو النفس، فإن من خرج عن دائرة الأمر والإذن الإلهى لا يصيبه سوى حبس روحه فى ظلمات نفسه، فتمنع من الإنطلاق الروحى فى ملكوت السموات والأرض.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

أى لقد سبق نصرنا لرسلنا منذ الأزل، فلا تتشغل أروحهم بتقدم النصر أو تأخره عنهم، ولذلك قيل عنهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾.

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وأبصرهم أى رقهم إلى إبصار ملكوت السموات والأرض، فتخرج أعينهم من دائرة الإبصار الحسى إلى الإبصار اللاحسى، فتترقى بالبصيرة فتصبح عيناً مشاهدة مكاشفة لما يجول فى ملك أبيهم، فتصبح هذه العين عارفة بربها، وقد كان ﷺ يقول فى هذا: ((**اعتدلوا فإنى أراكم من خلفى**))، أى أصبحت ذاته كلها عيوناً تبصر، وتطالع الملأ الأعلى .